المسيحية في العالم العربي*
(الأمير الحسن بن طلال)

مراجعة يوسف طباجه

I

يفتتح الكاتب التعريف بعقيدة الدين المسيحي بأن المسيح يمثل في شخصه تجلّي الله الكامل للبشرية، ولد من مريم، ومات على الصليب، وقام من القبر في اليوم الثالث صاعداً إلى السماء واعداً بالبقاء مع العالم إلى انقضاء الدهر. ثم يشير إلى الأناجيل الأربعة المعتمدة وهي متى ومرقس ولوقا ويوحنا وغيرها مما لا يعتد به ـ إضافة إلى أعمال وضعها بعض الرسل (أعمال الرسل) والرسائل وهي واحدة وعشرون رسالة منها ثلاث عشرة للرسول بولس، ورؤيا يوحنا اللاهوتي. أما النصوص التي كونت للإيمان المسيحي الصحيح (الأرثوذكسي أي الرأي القويم) فكانت من أعمال آباء الكنيسة (من القرن الأول حتى الثامن الميلادي) وهم (الآباء الرسوليون) الذين تسلموا القيادة المسيحية مباشرة عن الرسل، وفي زمن هؤلاء عقدت سبعة مجامع للكنيسة سميت (المسكونية) أي ما يختص بجميع العالم المسكون وهي مجمع نيقية الأول (325م) والقسطنطينية الأول (381م) وأفسس (431م) وخلقيدونيه (451م) والقسطنطينية الثاني (556م) والثالث (680م) ونيقية الثاني (787م).

تعد المسيحية يسوع الناصري المسيح الحقيقي لبني إسرائيل وأنه جاء إلى

(*) المسيحية في العالم العربي، الأمير الحسن بن طلال، مكتبة عمّان، عمّان، 1995.

العالم لا ليفتدي شعبه الإسرائيلي وحسب بل ليفتدي البشرية جمعاء تحقيقاً لنبوءة التوراة. ويعتبرون أن شخص يسوع البشري هو «ابن» الله الذي يشترك مع الله «الأب» في الألوهية والأزلية. وعلى هذا الأساس فإن المسيحية تعد الله «ثالوثاً أقدس» غير قابل للتجزئة تتوحد فيه ثلاثة أقانيم إلهية «مادة، طبيعة، ماهية» وهي «الأب، والابن، والروح القدس» وتقرر تعريف هذا الثالوث رسمياً في مجمع نيقية الأول. والمسيحية كما اليهودية تعتبر الأسفار التسعة والثلاثين التي تؤلف الكتاب المقدس العبري، كلمة موحى بها من الله ولا تتغير.. لكن الفرق في التعامل مع محتويات الأسفار المقدسة العبرية، فاليهود يعتبرونها قواعد للحياة أما المسيحيون فينظرون لها على أنها في الأساس هي نبؤات وإشارات تتعلق بمجيء المسيح.

اختلف بولس في تعاليمه عن غيره من الرسل من تلامذة يسوع (يهودي متحمس اضطهد أتباع يسوع في البداية). أما الإنجيل الذي بدأ يكرز به حوالي العام 40م فهو الذي حوّل المسيحية من مذهب إسرائيلي عنصري ضيق إلى دين عالمي الأبعاد وهو بالتالي إنجيل آخر يقول بولس إنه تسلمه شخصياً من المسيح بوحي خاص. وعلى هذا الخاص طفق بولس يفصل الكلام في مفهوم يسوع على أنه المسيح الأزلي الأبدي، ابن الله، فادي البشرية الذي يتساوى عنده بنو إسرائيل مع سائر «الأمم» في الافتداء الإلهي. وهذا ما شكل خلافاً قاوم تلاميذ وأتباع المسيح به تعاليم بولس، نظراً لاختلاف مفهومهم عن كون المسيح أقرب إلى المفهوم اليهودي للمسيح الموعود والمنتظر.

عندما بدأ يسوع الناصري يكرز بمجيء «ملكوت الله» قبله أتباعه على أنه سليل الملك داود عن طريق والده يوسف النجار، ولعل هؤلاء الأتباع الأوائل لم يعتقدوا بولادته من أم عذراء[1] حيث عرفوا بالنصارى المنشقين عن اليهود، وهؤلاء المسيحيون اليهود لم يعثر على كتبهم بل وجد بعض أتباعهم في جزيرة العرب في زمن ظهور الإسلام، ويفيد القرآن الكريم أن من «النصارى» من كانوا على صواب في عقيدتهم.. من دون أن يسندوا إلى شخصه أي ألوهية.. وأن كتابهم حسب النص القرآني هو الإنجيل (بالمفرد

لا بالجمع) وأنه كان مكتوباً بالعبرانية وليس باليونانية بحسب المأثورات الإسلامية، والقرآن الكريم يثني على إخلاص النصارى هؤلاء، وعلى تواضعهم ومودتهم تجاه الجماعة الإسلامية الناشئة والتي لم يختلف مفهوم المسيح عندها عن مفهومهم. ولكن هذا المذهب في المسيحية لم يدم طويلاً بعد ظهور الإسلام[1]. أما المذهب المسيحي الذي ساد واستمر ليصبح ديناً عالمياً فكان مذهب بولس. وتطورت في المسيحية مجموعة من البدع «الهرطقات» مثل «الإبيونيين» و«العنوصية» كما شهدت ظهور سلسلة من البدع الزهدية والصوفية «الدوقين والمارقيونيين والمونارخية» ورغم ذلك بقي آباء الكنيسة الأكثر رصانة يصرون على موقف وسط جعلوا منه أساساً لما اعتبروه المذهب الأرثوذكسي القويم.

II

بعد أن كان هم آباء الكنيسة الأول تحديد الكتابات «القانونية» للعقيدة الأرثوذكسية، كان الهم الثاني عندهم إيجاد تحديد وافٍ ومفصّل للإيمان المسيحي بشهادة يقر بها الجميع، ولكنهم لم يجدوها في مكان واحد وبشكل واضح لا إشكال حوله. فالوهية المسيح تعتمد على مقدمة إنجيل يوحنا، أما وأنه ولد من أم عذراء فإنجيل متى ولوقا دون الأناجيل الأخرى، وقيامة المسيح من أناجيل مرقس ولوقا وأعمال الرسل ورسائل بولس.. أما عقيدة الثالوث الأقدس فتعود أساساً إلى آخر كلمات قالها يسوع لتلاميذه قبل صعوده إلى السماء كما يرويها إنجيل متى «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». وعلى هذا الأساس كان مريدو اعتناق المسيحية يُسألون ثلاثة أسئلة:

1 ـ هل تؤمن بالله الآب ضابط الكل؟

2 ـ هل تؤمن بربنا يسوع المسيح ابنه؟

3 ـ هل تؤمن بالروح القدس والكنيسة وقيامة الموتى؟

ويعتبر الرد الإيجابي على هذه الأسئلة الثلاثة شهادة كافية بالإيمان المسيحي. ولكن هذا الرد لم يكف، حيث استعملت شهادات أخرى ظهرت في العام 200م وكذلك في العام 500م ولا تزال تستعمل في الكنائس الغربية (الكاثوليكية والبروتستانتية) إلى اليوم. ومع ذلك نشأت نزاعات بين المذاهب وكان أشدها ما جاء به آريوس (موناريخي) (ت 336م)، إذ وصف «ربنا يسوع» الابن بأنه المولود الوحيد للآب، نافياً بذلك التساوي في الأزلية بين عنصري الآب والابن في الثالوث الأقدس.. فهدد وحدة الكنيسة كما لم تهدد من قبل. لكن مجيء قسطنطين الكبير (ت 337م) إمبراطوراً على الدولة الرومانية، اعتنق المسيحية (312م) ويبدو أنه كان على المذهب الآريوسي، ولكن عنده تفرّده بالإمبراطورية قرر تسوية الخلاف اللاهوتي فكان مجمع نيقيه عام (325م) الذي تمخّض عن نصر لمعارضي المذهب الآريوسي وبقانون عرف باسم (قانون الإيمان النيقاوي) الذي وضع باللغتين اليونانية (لغة الكنيسة في الغرب) واللاتينية (لغة الكنيسة في الشرق) ولكن هذا لم يضع حداً للخلافات التي أدت إلى عقد مجمع في القسطنطينية عام (381م) وفي خلقدونية سنة (451م) وذلك بدعم من سلطة الدولة الرومانية حيث أخذ المذهب الآريوسي يفقد موقعه..

III

يندرج في نسق تنظيم الكنيسة، أن يسوع استودع الروح القدس في تلاميذه، معطياً إياهم الصلاحية الكاملة ليكونوا رسلاً له وذلك عندما ظهر لهم في الليلة التي قام فيها من الأموات، وهؤلاء نقلوا هذه السلطة إلى أتباعهم بوضع أيديهم عليهم وهي التي تسمى في المصطلح المسيحي العربي «السيامة» ومعهم «الشمامة» ليساعدوهم في عملهم.

ويبدو أن بولس لم يكن فقط صاحب فكرة المسيحية التي عاشت لتصبح ديناً عالمياً، ولكنه كان كذلك مرسي قواعد الكنيسة كمؤسسة منظمة يديرها مدبرون من رتب مختلفة تندب إليهم سلطة مستمدة من الرسل عن طريق السيامة، أما (الكنيسة الأم) أي «أساقفة الختان» فكانت السلطة فيها متوارثة في أقرباء يسوع، لم يسموا

أساقفة في زمانهم ولكن مؤرخي الكنيسة أطلقوا عليهم هذا اللقب. وبهذا اجتمع الرأي على جعل رجال الكهنوت وحدهم أصحاب الحق في ممارسة السلطة الروحية المستمدة من الرسل، وهذا ما يميز بين الإكليروس والعلمانيين، وقد انحصر بسرّين أصليين في الممارسة الكنسية بالأساقفة والقساوسة دون الشمامة وهما: المعمودية وسر القربان المقدس أو المناولة. فالسر الأول هو عبارة عن غمس الجسم أو غسله بالماء، ويتبع ذلك المسح بالزيت المقدس والغاية منه تطهير طالب الدخول في المسيحية أو الطفل المولود تطهيره من خطيئة آدم الأصلية.

أما القربان الذي تدور حوله العبادة المسيحية الكنسية، فيقوم به الكاهن الرئيس بتقديس خبز وخمر، ثم بتقديمه إلى الجمهور المشترك في الخدمة باعتبار أن الخبز المقدس يصبح بمثابة جسد المسيح والخمر دمه. وهذه الطريقة هي ما يعرف جملة (بالقداس) وقد أضيفت أسرار أخرى منها سر الزواج الطاهر وسر الإنابة أو (الاعتراف).

أما الرئاسة على الكنائس فقد تكرست للأساقفة، وسميت المنطقة التابعة للأسقف «أبرشية» وكل أبرشية قسمت إلى وحدات سميت «رعية» على رأسها قس. وفي أواخر القرن الميلادي الثالث بدأ التقليد المسيحي يميز بين أساقفة عواصم وأساقفة بلدات، فصار الأول يسمى «مطراناً» أو «رئيس أساقفة» لتمييزه وإن كان الاثنان متساويين في المكانة الكنسية من حيث السيامة، ولكن ما يجب ذكره هو أن هناك خصوصية اكتسبتها كنائس أربع هي: روما في الغرب والإسكندرية وأنطاكية والكنيسة الأم في أورشليم في الشرق. أضف إلى هذه الكنائس كنيسة القسطنطينية التي تأسست سنة 330م. ولما كان الأسقف بمثابة الأب لرعيته، درج على مناداته كلفة محببة «بابا» وفي القرن السادس الميلادي صارت تسمية البابا في الغرب لقباً يميز أسقف روما (وهو البطريرك هناك). وفي القرن التاسع أصبح مقصوراً على أساقفة روما عدا البطاركة الأقباط في الإسكندرية، وما زال هؤلاء يسمون (باباوات) إلى اليوم.

IV

إن المسألة البالغة الدقة والتي بقيت محل خلاف وجدل في الكنيسة

المسيحية هي العلاقة بين اللاهوت (أي الطبيعة الإلهية) والناسوت (أي الطبيعة البشرية) في شخص المسيح يسوع، فالفريق الأول يقول بأن المسيح هو الله إذ أصبح إنساناً ـ وأن ناسوته لم يتعد كونه مجرد هيئة أو شكل ـ والآخر يشدد على الاستقلال بين الطبيعتين قائلاً بأن المسيح هو الله إذ حل في إنسان ـ وأن الناسوت في المسيح هو عبارة عن وعاء للاهوته وأن مريم العذراء لم تكن أماً إلا للمسيح كإنسان ولذلك لا يجوز وصفها ومخاطبتها في الصلوات والتضرعات على أنها «أم الله» ـ وقد تبنى أرباب كنيسة الإسكندرية مقولة الفريق الأول وأرباب كنيسة أنطاكية مقولة الفريق الثاني باعتبار أن المقولتين انطلقتا من المشرق العربي، الأول على يد أسقف اللاذقية والثانية من قيليقية.

وهناك من قال خوفاً على تصدع الإيمان المسيحي أن المسيح هو الله الذي ولد وعاش إنساناً وتألم ومات على الصليب ليفتدي البشر، لأن القول بأن اللاهوت في المسيح منزّه عن ناسوته يبطل القول بأن المسيح الإله تألم ومات، لكن الطبيعة الإلهية غير قابلة للعذاب الجسدي والموت. وأن ناسوت المسيح ما كان إلا وعاء للاهوته يلغي دور الله في الفداء.

اشتد الصراع حول هذه المسألة عند تعيين نسطوريوس (من أصل عربي) بطريركاً للقسطنطينية (428م) والذي يقول بطبيعتين للمسيح حيث اصطدم بمعارضة عنيفة قادها بطريرك الإسكندرية قيريلّوس (412/ 444م) من كبار دعاة الطبيعة الواحدة، فعقد مجمع أفسس (431م) في الأناضول حيث نجح قيريلّوس في أن يخلع المجمع نسطوريوس عن كرسي القسطنطينية بعد إدانة مقولته، ونفيه، لكن مذهبه استمر موزعاً خارج تخوم الإمبراطورية الرومانية.

خلا الجو لبطريرك الإسكندرية الذي خلفه ديوسقورس واللذين وصفا بأنهما «فرعونان» ما جعل بابا روما ليون الأول (440/ 461م) يخشى المنافسة منهما على زعامة الكنيسة في العالم، فانبرى يعارض مذهب (الطبيعة الواحدة) بشدة، وأخفقت أول محاولة لرأب الصدع بفشل عقد مجمع أفسس الثاني عام (449م) والذي أجبر المجتمعون فيه على اتخاذ قرار لصالح مذهب (الطبيعة الواحدة) ولذلك سمي المجمع من الفريق المساند لروما بـ «لصوصية أفسس».

لكن بابا روما أصر على موقفه يسانده الأمبراطور الذي دعا إلى عقد مجمع في خلقيدونيه والذي أقر بأن المسيح ليس له طبيعة واحدة بل طبيعتان ولكنهما متحدتان اتحاداً تاماً في شخص واحد هو الله. وهو إنسان في الوقت نفسه. هذه المعادلة اعتبرها أصحاب المذهب الواحد إدانة لهم رغم أن آباء الكنيسة الذين اشتركوا في هذا المجمع والأمبراطور كذلك حاولوا فيه تجنب أي قرار سلبي يفضي إلى القطيعة مع الكرسي الإسكندراني والذي كان يحظى بدعم شعبي كبير على امتداد مصر والشام والأصقاع الأخرى غير اليونانية. ولعل هؤلاء أدركوا أن بين الإلحاح المصري والشامي في الانشقاق الديني تكمن مشاعر عرقية ساخطة من هيمنة العنصر اليوناني.. وفي الواقع إن قرارات المجمع الخلقيدوني أسفرت عن انشطار فوري داخل كنيسة الإسكندرية ما بين (الأقباط) وما سمي فيما بعد (الملكية) وكذلك في كنيسة أنطاكية. لكن الضرورة السياسية حتمت على الأباطرة والبطاركة في القسطنطينية على المحاولة لاحتواء هذا الانشقاق. ولم تتم تلك المحاولات إلا في عهد الأمبراطور يوستنيانوس (527/ 565م) بتأثير من زوجته ثيودورا التي كانت تؤيد مذهب الطبيعة الواحدة.

وفي هذه الأجواء عقد المجمع الخامس (القسطنطينية الثاني 556م) وبتأثير من الأمبراطور وزوجته تم التوكيد على صحة التعريف الخلقيدوني (الأرثوذكسية) مع تلطيف لصالح مذهب «الطبيعة الواحدة» وهذا ما سمح للكنيسة اليعقوبية - نشأت في بلاد الشام في ظل الأمبراطور يوستنيانوس - بتسمية أنفسهم «بطاركة أنطاكية» أسوةً بالملكانيين. وكانت الكنيسة القبطية قد استبدلت باللغة اليونانية القبطية، فحذا اليعاقبة بالشام حذو الأقباط مستبدلين السريانية في طقوسهم اليونانية باليونانية. وهذا ما أضفى على كل من الكنيستين صبغة قومية. وفي الواقع أن الكنيسة الأرمنية كانت السباقة في هذا فكانت أول أمة مسيحية في التاريخ كما توصف.

في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي اتفق ملوك القسطنطينية وملوك الساسانية في بلاد فارس على اقتسام أرمينية، مما أدى إلى اتهام الأرمن للأباطرة

الرومان بالخيانة، ولعل امتعاض الأرمن من سياسة هؤلاء كان من أهم العوامل التي جعلتهم يعتنقون مذهب (الطبيعة الواحدة) كما الأقباط في مصر واليعاقبة في الشام، وقد حصل ذلك عام 506م في مجمع دوين، حيث رفضت الكنيسة الأرمنية التقيد بمقررات المجمع الخلقيدوني.

شهد عهد هرقل (610/ 641م) آخر محاولة لرأب الصدع وذلك لأسباب سياسية محضة، ولكن هذا الأمبراطور واجه في بداية عهده غزواً فارسياً أدى إلى اجتياح بلاد الأناضول والشام ومصر كلها. وسرعان ما تبين أن الغزاة كانوا يلاقون المساعدة أو على الأقل عدم مقاومة من الأرمن واليعاقبة والأقباط (طبيعة واحدة). ولكن الروم وبقيادة هرقل استعادوا عام 628م جميع الأراضي التي فقدوها، لكن نجاح البيزنطيين هذا ما كاد يكتمل حتى بدأت تظهر بيارق الفتوحات الإسلامية والتي انتهت بانتزاع بلاد الشام ومصر بين عامي 634 و642م فوقف أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة موقفهم تجاه الغزو الفارسي. وهذا ما حدا بهرقل على استرضاء رعاياه من أتباع هذه العقيدة في المسيح، وقد حقّق ذلك عبر تنازلات عقائدية، فوجد عقيدة ثيودوروس الفاراني (عربي الأصل) الذي كان يكرز بانبثاق «طاقة» واحدة وإرادة واحدة من اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، وكان أتباع هذه الكرازة بالشام قد عرفوا حسب المصادر بـ (الموارنة) علماً أن علماء الموارنة يرفضون هذا القول ويعتبرونه افتراء عليهم.

يقول المسعودي في «كتاب التنبيه والإشراف» إن المارونية ظهرت بالشام في عهد الأمبراطور موريق (582/ 602م) نسبة إلى دير عظيم إلى الشرق من حماة في وادي العاصي. ومهما يكن فإن مذهب «المشيئة الواحدة» قد بدا لهرقل وبطريرك القسطنطينية وبابا روما كأنه يقدم المعادلة المثالية لحل وسط بين المذاهب. فأصدر هرقل عام 638م مرسوماً يفرض الاعتراف بالمشيئة الواحدة المنبثقة من الطبيعتين في المسيح كجزء أساسي من الإيمان المسيحي الأرثوذكسي، لكن هذا الإجراء أخفق في حل النزاع، فالفريق الأول اعتبر مضمون مرسوم هرقل غير مقبول لاهوتياً لأنه يخضع الإيمان المسيحي لأغراض سياسية. والفريق الثاني لم يبد أي استعداد

لاستبدال معتقده الراسخ في «الطبيعة الواحدة». وفي عام 680م انعقد المجمع السادس (القسطنطينية الثالث) للبت في أمر المشيئة الواحدة، فجرت إدانةُ القول بها بوصفها بدعة شريرة.

والجدير ذكره أن هذه الإدانة القاطعة لمذهب هرقل حدثت في وقت كانت الكنائس القبطية واليعقوبية والأرمنية قد وقعت تحت الحكم الإسلامي كذلك الكنيسة المارونية بالشام والنسطورية في العراق وتحررت جميعها من سطوة القسطنطينية.

V

كان آخر خلاف لاهوتي هز الكنيسة هو النزاع حول استعمال الأيقونات في العبادة، وبدأ هذا الخلاف عام 726م إثر مرسوم من الأمبراطور ليون الثالث (717/741م) يحظر فيه الصلاة أمام الأيقونات واستعمالها في الكنائس، وبدأت دولة الروم حركة (تحطيم الأيقونات) ويبدو أن الأباطرة في حربهم على الأيقونات كانوا يحاولون الحد من تنامي قوة الرهبان والراهبات في الكنيسة ذات الأثر في النفوذ السياسي.

وجدير بالملاحظة أن الرهبنة في المسيحية تطورت تاريخياً باستقلال عن الكنيسة ولم تكن في أول أمرها منظمات دينية على شاكلة تلك التي برزت في العالم المسيحي الغربي فيما بعد، إذ لم يكن لها قواعد رسمية ثابتة، ولا قوانين تحدد علاقتها بالكنيسة.. لكن المسيحيين العاديين وجدوا في الرهبان أناساً مثاليين نذروا أنفسهم لإنكار الذات، فأعجبوا بهم وتعاطفوا معهم، حتى أضحى تعلقهم بهم أقوى من تعلقهم بأرباب الكنيسة، وبذلك أخذت المؤسسات الرهبانية تكتسب نفوذاً كبيراً في المجتمع المسيحي عامة، أضف إلى ذلك الثروات الكبرى من المال والأرض التي حصل عليها بعض الأديرة عن طريق الهبات، وهذا ما زاد في قلق السلطة الحاكمة وما من شأنه أن ينعكس سلباً على خزينة الدولة، إذ لم يكن بالمستطاع فرض الضرائب على الأديرة، وكذلك فإن الالتحاق بالرهبانيات كان يوفر الطريقة المثلى لأعداد

كبيرة من الشباب للتهرب من الخدمة العسكرية، في وقت كانت فيه الدولة البيزنطية بأمسّ الحاجة إلى كل من له قدرة على حمل السلاح وهي المشتبكة آنذاك في حروب متواصلة مع المسلمين في الشرق، والبلغار والصقالبة في الغرب. فيما كانت الكنيسة توفر الملجأ الآمن لأي خارج على السلطة بغض النظر عن الأسباب.

لقي الأباطرة مقاومة شعبية شديدة لسياستهم تجاه الأيقونات، والمقاومة الشعبية هذه جاءت تدعمها كتابات لاهوتيين كيوحنا الدمشقي ورئيس دير في القسطنطينية. والدمشقي هذا كان مقرباً من الخلفاء الأمويين بدمشق. أما القوى المساندة لسياسة الأباطرة فكانت تتمثل بأجهزة الدولة وعلى رأسها الجيش. فنظمت هجمات عسكرية على الأديرة المتشددة، فسقط ضحايا وألقي القبض على عدد من الرهبان النافذين، ونفي آخرون، لكن الرأي العام الشعبي كان إلى جانب الرهبان إلى أن اتخذت الدولة في النهاية قراراً عام 843م قضى حينها بالعودة إلى الأرثوذكسية وافتتح بإقامة قداس في كنيسة أياصوفيا أعيد فيه إلى هذه الكنيسة ما كان قد نزع منها من أيقونات وكان ذلك بموكب مهيب قادته الأمبراطورة ثيودورا شخصياً، وبهذا تكون قصة الأيقونات قد انتهت بنصر واضح للرهبان الذين التزموا أديرتهم ممتنعين عن التدخل في الشأن العام مما أتاح للأباطرة استعادة قوتهم للسيطرة على الدولة والكنيسة معاً.

VI

في النزاع حول الأيقونات وقفت كنيسة روما بشدة إلى جانب فريق الرهبان، فكانت القطيعة بين كنيسة القسطنطينية وروما، ولكن هذا كان ينطوي على أشياء أخرى.

بعد زوال الأمبراطورية الرومانية في الغرب (476م) تحت وقع الغزوات الجرمانية المتكررة، عمت الفوضى في جميع المناطق التابعة للكرسي الروماني مما أدى إلى أن تصبح البابوية حتى وقت طويل وحدها العامل الضابط في تلك المناطق... وما لبث هؤلاء أن تحدوا ادعاء أباطرة القسطنطينية بالسلطان السياسي على العالم المسيحي كله، إذ أخذوا يتوجون

أباطرة على البلاد المسيحية في الغرب وكان أولهم شارلمان عام 800م وهذا ما عزز الانقسام فوق ما جرى من اختلاف في اللغة، وأخذ فريق ينسب إلى الفريق الآخر أسوأ الخلق، لكن المستغرب في الأمر كله ليس الافتراق أخيراً بل التلازم الذي استمر طيلة الفترة السابقة لها وهو وحدة كنيسة المسيح على الأرض وتمسكها بالإيمان المسيحي الأرثوذكسي.

يعود الانشقاق بين روما والقسطنطينية إلى العام 867م حين أزاح الإمبراطور ميخائيل الثالث (842/ 867م) بطريرك القسطنطينية وعين مكانه رئيس ديوانه فوتيوس الذي كان عالماً وليس كاهناً الأمر الذي اقتضى رسمه شماساً ثم قسيساً ثم أسقفاً في احتفال واحد قبل تعيينه في سدة البطريركية، الأمر الذي لم تعترف به كنيسة روما مما أدى بفوتيوس إلى إعلان خلع البابا نيقولاوس من منصبه في نفس العام.

في هذه الأثناء كان المسلمون يدقون أبواب جزيرة صقلية ومناطق جنوب إيطاليا وبات أحبار روما بأمس الحاجة إلى دعم بيزنطي مما اضطرّهم للاعتراف بفوتيوس الذي راعى ظروف روما متجنباً الانشقاق، وبقيت هذه الوتيرة من العلاقات حتى القرن الحادي عشر الميلادي عندما نشطت في الغرب حركة إصلاحية عرفت بـ (الكلونية) في فرنسا، وهذا ما انعكس إصلاحاً في الكنيسة الرومانية مما أدى إلى تعاظم السلطة البابوية وتجدد الاصطدام مع كنيسة بيزنطية، وكان الخلاف حول التبعية الكنسية لمناطق جنوبي إيطاليا الذي تطور زمن البابا الإصلاحي ليون التاسع (1040/ 1054م) الذي أعلن حرمان الكنيسة البيزنطية مبرراً ذلك في ثلاثة نقاط هي: غياب عبارة (والابن) من الإيمان النيقاوي. وقبول الرجال المتزوجين في سلك الكهنوت. واستعمال الخبز المختمر بدلاً من الفطير في القربان المقدس. فأفضى هذا إلى افتراق دائم بين كنيسة رومانية كاثوليكية في الغرب وكنيسة بيزنطية أرثوذكسية في الشرق تتبعها الملكانية في كنائس أنطاكية والقدس والإسكندرية.

VII

كان الملكانيون بسبب ولائهم المعروف لبيزنطية أقل الجماعات المسيحية

حظوةً لدى الدولة العربية الإسلامية، وبقي الكرسي البطريركي في أبرشية أورشليم صافياً لطائفتهم رغم قبولهم بالتسليم للمسلمين عند الفتح وفق شروط أقروا بها، وظلوا كذلك حتى وصول الحملة الصليبية الأولى إلى فلسطين وسقوط مدينة القدس عام 1099م.

أما في أبرشية أنطاكية فكان الأمر مختلفاً تماماً، إذ أضحت مدينة أنطاكية واحدة من العواصم الأمامية للمسلمين في وجه البيزنطيين ببلاد الأناضول. وكان من الطبيعي أن لا يرحب المسلمون بوجود قيادة موالية لبيزنطية في موقع له هذه الأهمية الاستراتيجية فكان بطاركة فخريون للكرسي الإنطاكي يقيمون في القسطنطينية، وفي هذه الفترة (أواخر القرن السابع الميلادي) بدأ الموارنة بالشام ينتخبون بطاركة منهم لذلك الكرسي الإنطاكي.

وفي العام 969م استطاع البيزنطيون استعادة أنطاكية ومعظم وادي العاصي والمناطق المتاخمة له، فكان طبيعياً عودة الكرسي الأنطاكي الموالي لبيزنطية وقد حجر الملكانيون في أبرشية أورشليم (كان لهم طقسهم السرياني الأورشليمي) وإنطاكية (كان سرياني إنطاكي) والإسكندرانيون (قبطياً إسكندرانياً) حجروا طقوسهم الأصلية واقتبسوا الطقس البيزنطي، بينما هاجر الموارنة إلى جبل لبنان عدا جماعة صغيرة منهم في حلب وهي المدينة الوحيدة في شمال الشام التي بقيت في حينه بأيدي المسلمين. والحقيقة أنه لو كانت بلاد الشام عام 680م تحت الحكم البيزنطي، لما تمكن الموارنة من الانفصال عن الكنيسة الأنطاكية الملكانية بالسهولة التي انفصلوا بها، ولو نجح البيزنطيون خلال استعادتهم لإنطاكية ووادي العاصي باستعادة الشام كله لما وجد الموارنة مكاناً في البلاد يلجأون إليه من الاضطهاد البيزنطي، ولصعب عليهم من ثم أن يحافظوا على كيانهم الكنسي المستقل. وكذلك حال الأقباط والنساطرة واليعاقبة وفق تكفير البيزنطيين لهؤلاء.

VIII

شكل القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلادي عهد الحروب الصليبية في بلاد الشرق (1096/ 1291م) تحت لواء باباوات روما، وهذا ما أدى بالطبع إلى معاناة كبيرة للمسيحيين الملكانيين لكونهم من أتباع البيزنطية، إلى أن عين الفرنجة بطاركة لاتينيين على كل من كرسي القدس وإنطاكية مما أدى إلى هروب القيمين على الطائفة الملكانية في كلا الكرسيين إلى القسطنطينية إلى أن استعاد المسلمون بلاد الشام، حيث دمرت إنطاكية خلال استعادة المماليك لها وتحولت إثر ذلك إلى قرية صغيرة مما اضطر بطاركتها العائدين أن يتخذوا من دمشق مقرّاً لهم والتي أصبحت مركزاً دائماً لهؤلاء.

أما مسيحيو الشام من غير الملكانيين فمن الطبيعي أن ينصاعوا بسهولة إلى المفاتحات اللاتينية، فقد وضع الأرمن والموارنة بإرادتهم المحضة إمكاناتهم في خدمة الفرنجة.

هذا التعاون أدى بالكنيسة الأرمنية جملة بالدخول في شراكة دينية رسمية مع روما، بينما كان الموارنة قد بدأوا مفاتحاتهم بشأن الاتحاد من العام 1100م، ولكن هؤلاء لم يتخلوا عن بدعة (المشيئة الواحدة) حسب وليم الصوري. لكن خروج الفرنجة من بلاد الشام أدى بالطائفة الأرمنية إلى قطع علاقتها تماماً بروما عام 1345م وكذلك توقفت مفاتحات كل من اليعاقبة والنساطرة، أما الكنيسة المارونية فلم تتخل مبدئياً عن اتحادها مع روما برغم معارضة بعض صغار الكهنة في صفوفها. ولم تكن روما بعد قد اعترفت للكنيسة المارونية بلقب (بطريرك إنطاكية) كون هذا اللقب كان لرئيس الكنيسة الإنطاكية الملكانية التي كانت بالنسبة لروما طائفة صحيحة المذهب رغم انشقاقها عكس الكنيسة المارونية التي كان باباوات روما يعتبرونها طائفة خرجت عن المذهب الأرثوذكسي. لكن اليأس الذي أصاب روما تجاه الملكانيين لجهة وضع نهاية للانشقاق حتى بدأ البابا بدءًا من العام 1454م يخاطب رئيس الكنيسة المارونية بلقب (بطريرك أنطاكية) على أن بطاركة الموارنة يستمدون شرعيتهم الرسولية ليس من أسلافهم الخارجين عن (الأرثوذكسية)، بل من باباوات روما وذلك

من خلال ما يسمى (التثبيت) بعد أن ينتخبوا من قبل أساقفة طائفتهم.

بدأت العلاقات بين الموارنة وروما بعد مجمع فلورنسة تتخذ شكلاً منظماً تتلمذ على أثرها شبان موارنة في روما فكان ابن القلاعي (ت 1516م) أحدهم والذي عاد إلى جبل لبنان لينشط في العمل على توطيد الوحدة بين الموارنة وروما ليصبح بعدها أول مستشار كاثوليكي للبطريركية المارونية من أهل البلاد.

* * *

وظهرت حركة الإصلاح الديني في الغرب عام 1517م بقيادة مارتن لوثر، وقد خرج أتباع هذه الحركة عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لينتظموا في كنائس (بروتستانتية) تبعها حركة إصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية هدفت إلى تقوية الموقع الكاثوليكي تجاه البروتستانتية. على أثرها انبثقت موجة عارمة من التبشير الكاثوليكي في العالم، إلى أن انعقد في العام 1596م مجمعٌ للكنيسة المارونية في دير قنوبين برعاية روما بقصد إدخال إصلاحات على النظام الكنسي الماروني، تتماشى والنظام القائم في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، سبقها تأسيس معهد لاهوتي في روما عام 1585م باسم (الكلية المارونية) لتعليم الشبان الموارنة الطامحين إلى المناصب الكنسية وتدريبهم على الطريقة الكاثوليكية أدى في العام 1608م إلى اختيار أحد تلامذة هذا المعهد الأول بطريركاً للكنيسة المارونية هو يوحنا مخلوف.

وعقد مجمع ماروني ثاني في العام 1736م في دير سيدة اللويزة، جرى فيه تنقيح كل مجمع قنوبين وإكماله، بعده برزت الكنيسة المارونية ككنيسة متحدة اتحاداً كاملاً مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، محافظة في الوقت نفسه على طقسها السرياني الأنطاكي وعلى تقاليد وأنظمة خاصة بها.

IX

حذا بعض مسيحيي المشرق حذو الموارنة، ويعود ذلك إلى حرية العبادة التي ضمنتها دولة المماليك (1250/ 1517م) لرعاياها من غير المسلمين كما درجت

عليه العادة في الدولة الإسلامية من قبل. لكن ذلك تغير إبان الحكم العثماني (1517/ 1918م) الذي حصر اعترافه حتى أواسط القرن التاسع عشر بثلاث ملل من غير المسلمين، فأتبعت مثلاً الطائفة السامرية الصغيرة في فلسطين بملة اليهود، وأوكلت إدارتها إلى الحاخام الأكبر في الآستانة، وملة الروم الشاملة لأتباع المذهب الأرثوذكسي البيزنطي يرأسها بطريرك القسطنطينية وملة الأرمن التي ضمت جميع الطوائف ذات الطقس السرياني ومنهم الموارنة. وهذا ما ولد مشاعر سخط في صفوف هذه الطوائف عدا الموارنة الذين كانوا يتمتعون بدعم من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وبحماية الدول الأوروبية الكاثوليكية، وسبب ذلك اتحادهم مع روما، فاستغل المبشرون الكاثوليكيون الاستياء هذا، وسارعوا إلى عرض الاقتداء بالموارنة والدخول في اتحاد مع روما يغنيهما عن الاعتراف العثماني بها ويعطيهما أكثر من ذلك.

بلغ استياء المسيحيين الملكانيين في بلاد الشام حدّاً لم يصله، جراء نظام الملل العثماني الذي أعطى السيطرة الكاملة لبطاركة القسطنطينية الذين أفرطوا في استغلال رئاستهم لملّة الروم. فجاء المبشرون الكاثوليكيون يقدمون المخرج الذي قدموه للنساطرة واليعاقبة، وهو الاقتداء بالموارنة ليؤمنوا الحصانة من نظام الملل الجائر. وبالفعل انخرط بعض المسيحيين المحليين في صفوف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وأطلق عليهم اسم «اللاتين» دون التخلي عن أنظمتهم الكنسية التقليدية، وهكذا انقسم أتباع كل من هذه الطوائف الشرقية الثلاث إلى فرعين (اتحادي) مع روما، وفرع لم يقبل.

يؤرخ للانشقاق هذا منذ القرن السابع عشر، وذلك بتأثير المبشرين الذين ساعدوا على قيام رهبنة سميت (المخلصية) نظمها وترأسها القس الملكاني يوثيميوس الصيفي الذي كان أسقفاً على أبرشيته في مدينة صور فيما يدعى اليوم لبنان، وإثر وفاة هذا القس انتخب أتباعه بطريركاً جديداً لهذا الكرسي، لكن الجماعة الأخرى من الملكانيين لم تعترف بصحة الانتخاب هذا، فانتخبوا بطريركاً آخر، حيث أقام كل من البطريركين للكرسي الواحد في دمشق، وكان من الطبيعي أن لا تعترف الكنيسة القسطنطينية إلا بالثاني، الأمر

الذي أدى إلى انقسام الكنيسة الملكانية إلى كنيستين لكل منها بطريركها الخاص (الروم الأرثوذكسي) وتعترف بها الدولة العثمانية (الروم الكاثوليك) وتنعم بدعم من روما والدول الأوروبية.

وما كاد يقع انفصال الروم الكاثوليك عن الروم الأرثوذكس وتحت تأثير المبشرين الكاثوليكيين أيضاً حتى وقع انشقاق مشابه بين الأرمن في حلب (الأرمن الكاثوليك) و(الأرمن الأرثوذكس) الذين ظلوا محافظين والدولة العثمانية لا تعترف إلا برئيسها على ملة الأرمن.

ونظراً للاضطهاد الذي لاقاه الكاثوليك المنشقون في كلا الطائفتين لجأ هؤلاء إلى جبل لبنان، حيث كان الموارنة فعرِّف رئيس طائفة الروم الكاثوليك ببطريرك إنطاكية والإسكندرية وأورشليم وسائر المشرق واتخذ من بيروت مقرّاً له والأرمن الكاثوليك في قرية بزمار بمنطقة كسروان من جبل لبنان. أما الطائفة القبطية الاتحادية (الأقباط الكاثوليك) تميزاً عن (الأقباط الأرثوذكس) الذين هم الأصل فكان ظهورها في مصر عام 1741م على يد أحد أساقفة الأقباط.

هذا في الشام ومصر، أما في العراق، فقد سبقت حركة التحول، إذ إنه كان للكنيسة النسطورية العراقية فرع ناشط في قبرص الذين اعتنقوا فيما بعد المذهب الروماني الكاثوليكي وسموا بـ (الكلدان) تميزاً عن النساطرة الذين رفضوا الالتحاق بروما مطلقين على أنفسهم اسم (الآشوريين).

X

ترجع بدايات البروتستانتية (المحتجة) إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، حيث ظهرت في أوروبا وتحديداً في ألمانيا خارجة عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بعد أن أخفقت في الدعوة إلى إصلاحها، ويختلف المذهب البروتستانتي من طائفة إلى أخرى. غير أن الأساس هو الاعتقاد بأن الكتاب المقدس هو الركن الوحيد الصالح للإيمان المسيحي، حيث يتوجب على كل مسيحي أن يلم بمضمونه شخصياً، دون وساطة الكنيسة وأن الخلاص لا يتحقق جماعياً عن طريق الكهنة، بل فردياً عن طريق الإيمان، وتعتبر

الطوائف البروتستانتية تبعاً لذلك جميع المؤمنين من أتباعها بمثابة كهنة، وهناك طوائف بروتستانتية (الإنجليكان) حافظت على التراتب الكهنوتي التقليدي وذلك لأسباب إدارية فقط، وهناك طوائف استبدلت النظام الكنسي بترتيبات جديدة مثل المشيخة، أما الطائفة المعروفة بإسم (جمعية الأصدقاء) الذين ذهبوا إلى القول بكهنوت جميع المؤمنين إلى أقصى حد، فأفرادها يجتمعون للصلاة معاً في ما يسمونه (بيوت اجتماع) على أساس التساوي الروحي الكامل بينهم.

دخلت البروتستانتية على يد مبشرين إلى العالم العربي في القرن الثامن عشر، حيث عرفت باسم (الإنجيلية) التي ظهرت أولاً في أميركا وبريطانيا، حيث هدفت إلى معالجة الشرور الاجتماعية الناتجة عن الثورة الصناعية.

وصل أول المبشرين الإنجيليين إلى بيروت في مطلع العشرينات وتم تأسيس ما عرف فيما بعد باسم «إرسالية سورية والأرض المقدسة» ثم (إرسالية سورية) فأسست مدارسها ومعاهدها اللاهوتية في بيروت والمناطق الدرزية، فجذبت البروتستانت من المسيحيين العرب المحليين، وفي نفس الوقت ظهر مبشرون بريطانيون خارجون عن الطائفة الإنجليكانية الرسمية، كما قدم إلى فلسطين في العام 1860م أول المبشرين اللوثريين الألمان، حيث ظهرت طائفة صغيرة من البروتستانت اللوثريين.

توقف نشاط المبشرين الإنجليكانيين في مصر بسبب وقوف بريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية في حربها بالشام مع محمد علي باشا، فانتقلوا إلى فلسطين، حيث تم تعيين أول أسقف إنجليكاني في القدس عام 1841م، حيث أصبحت هذه المدينة مركز نشاط هؤلاء الذين استطاعوا أن يجتذبوا أعداداً من المسيحيين العرب على جانبي نهر الأردن وأغلبهم من طائفتي الروم الكاثوليك والأرثوذكس. وصارت كنيستهم المستقلة إدارياً فيما بعد عن بريطانيا تسمى «الكنيسة الإنجيلية الأسقفية العربية» ونشير إلى أن الكنيسة الإنجيلية الوطنية في بيروت بقيت أكبر الكنائس البروتستانتية في لبنان وسورية عدداً، وهي لا تزال إلى اليوم مستقلة عن الكنائس التابعة للسينودس الإنجيلي الوطني في هذين البلدين.

ولا بد من ذكر أن هناك جماعات بروتستانتية برزت في البلاد العربية كالكنيسة الإنجيلية القبطية (على يد أميركان) والكنيسة الإنجيلية الأرمنية في اسطنبول وأتباعها فريق من الأرمن الذين تعرضوا للمذابح في بلاد الأناضول وقيليقية في العام 1894 و1915م، حيث لجأوا إلى البلاد العربية المجاورة، وهناك الإنجيليون الآشوريون في العراق، وجمعية الأصدقاء التي أنشأت أول مستشفى للأمراض النفسية والعقلية في المشرق العربي ومركزها جبل لبنان.

XI

قضى النشاط التبشيري على ما تبقى من وحدة تاريخية بين صفوف الجماعات المسيحية المختلفة، إلا أن شيئاً يذكر هو أن هذه الانشقاقات أدت فيما أدت إلى أن أصبحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية المنفصلة في أيدي عربية، من رأس الهرم إلى أسفله، وقد رافق ظهور هذه الكنيسة إدخال أول مطبعة تطبع بالحرف العربي إلى البلاد العربية، وأطلقت أولى شرارات النهضة العربية في بلاد الشام بقيادة مسيحية، بينما بقي الكرسي الإسكندراني للروم الأرثوذكس لغير مصري، وكذلك الكرسي الأنطاكي ولا يزال بطريرك أورشليم للروح الأرثوذكس يونانياً إلى اليوم وكذلك إدارتها.

ولا يزال للمسيحية، بمختلف طوائفها وجود ملحوظ في العالم العربي اليوم في مصر والعراق، كما في الأردن ولبنان وسوريا وفلسطين. أما الجزيرة العربية وغربي مصر (إفريقيا) فمسيحيوها ليسوا من المحليين، ولكنهم مغتربون عرب أو أجانب. أما في السودان فتنحصر المسيحية في جنوبها ولكنهم ليسوا من أصل عربي، أما أكبرالطوائف المسيحية في البلاد العربية فهم الأقباط في مصر (يزيد على الستة ملايين) والروم الأرثوذكس المركز الثاني (بحدود المليون) والموارنة المركز الثالث والأكثرية الساحقة منهم في لبنان (بحدود المليون).

إن هذا التواجد والانتشار والمشاركة يشكل في الحقيقة تنوعاً. إلا أن الأهمية للمسيحيين العرب تميزهم في الحضور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي، إذ لا يغيب أن نذكر أن المسيحيين في بلاد الشام إليهم يعود

الدور الرئيسي في النهضة العربية، وقد برزت أسماء علماء من بينهم أحيت اللغة العربية وجدّت في بعث تراثها، فأرست بذلك فكرة القومية العربية، كما كان للمسيحيين الدور الرائد في خلق الصحافة العربية ومعظمهم من لبنان، كما أسهم المسيحيون منذ ذلك الوقت على مدى طول العالم العربي وعرضه في مجالات التربية والتعليم والطب وغيرها من المهن العلمية. ذلك أن المسيحيين كانوا باب الانفتاح على الأفكار والعلوم والنظم الاجتماعية الحديثة في الغرب بسبب مشاطرتهم صفته المسيحية، في حين كان للموارنة الدور الرئيس في تنظيم إحدى الدول العربية (لبنان) والمحافظة على ديمومتها.